



حازم الأمين

يُعد النائب البريطاني جورج غالاوي حملة جديدة لإيصال مساعدات إلى قطاع غزة، وهذه المرة استبدلت الشواطئ التركية منطلاً لسفن التضامن بالشواطئ السورية، تحديداً ميناء اللاذقية!

إذاً هي حملة تضامن مع النظام السوري، يستعمل فيها الفلسطينيون مجدداً لتحسين أنظمة فقدت شرعيتها وأمعنت في القتل والاضطهاد.

والحال أن مشروع غالاوي الجديد يمثل تكثيفاً غير مسبوق لما أصاب القضية الفلسطينية جراء الإمعان في توظيفها لحماية النخب العسكرية الحاكمة في عدد من دول المنطقة. فالانتقال من الشواطئ التركية إلى الشواطئ السورية فيه «عقاب» لتركيا على مواقفها من النظام في دمشق، وفيه محاولة يائسة للقول بأن النظام السوري هو «القلعة الأخيرة» لمواجهة حصار إسرائيل قطاع غزة. وال الحاجة إلى أبلسة تركيا وتعزيز موقع النظام في سوريا تعود إلى شعور النخب الممانعة بأن نظامها في دمشق مهدد. وهذا كله لا علاقة له، لا من قريب ولا من بعيد بمساواة الفلسطينيين المحاصرين في قطاع غزة.

هذا بديهي طبعاً، كما هو بديهي التذكير بمشروع التضامن اللبناني مع قطاع غزة عندما تولت رعاية سفن «التضامن» سيدات أقدمن لاحقاً على تنظيم حملات دعم للنظام في سوريا في بداية ثورتها، علمًا أن الحملة اللبنانية جمعت تبرعات ومساعدات للقطاع ثم حالت «خلافات داخلية» بين المنظمين دون إرسالها، ولم تجر مكافحة للرأي العام اللبناني حول مصير المساعدات والتبرعات التي كان من المفترض إرسالها.

كل هذا يبقى جزءاً من رقص الفنا على جثث الفلسطينيين، صار التذكير به رتيبة، لكنه في الحالة السورية امتد ليصبح رقصاً على جثث السوريين، وأيضاً على جثث سكان المخيمات الفلسطينية في المدن السورية، أولئك الذين لم توفرهم آلة القمع لدى النظام. فغالاوي الذي ستقع سفنه من ميناء اللاذقية إلى قطاع غزة المحاصر، يعرف تماماً أن هناك على بعد أمتار من سفنه الراسية في ميناء اللاذقية، مخيماً (فلسطينياً أيضاً) محاصراً، وقبل أشهر قليلة وصلت إلى قبالتة فرقاطات النظام وقصفته من المكان الذي ترسو فيه «سفن التضامن مع غزة». وربما تزودت سفن التضامن مع الفلسطينيين (في غزة) بوقود من فرقاطات قصفت الفلسطينيين (في اللاذقية).

ولكن يبقى لمساواة السوريين والفلسطينيين مع «المتضامن» معهم، بعد آخر صار ملحاً بعد ما شهدته المنطقة من ثورات

وانتفاضات، يتمثل في أن المجتمعات العربية اليوم تُقدم عناصر أزماتها الداخلية على أي اعتبار آخر، وهو أمر قد يبدو أن القضية الفلسطينية صحيته الأولى، إذ تراجع مستوى الانشغال بها إلى درجة ثانية وربما ثالثة في سلم أولويات المجتمعات والأنظمة الجديدة. لكن ما قد يبدو نكوصاً مرجحاً لأن يكون فرصة أيضاً. ذاك أن تخلص القضية الفلسطينية من مساعي ابتدالها في خطاب الممانعة وفي حماية أنظمة استبدادية، هو الآن فرصة فعلية.

القول أن جورج غالاوي هو مجرد متسلل على أبواب النظام في دمشق، وقبله في بغداد، لا يمكن أن يُرد، لا بل هو حاجة وطنية فلسطينية، إذ كيف يستقيم التضامن مع أصحاب حق في فلسطين في سياق مساعٍ لحماية نظام يسلب السوريين حقهم في الحياة؟

الحاجة إلى ذلك فلسطينية وليس سورية، فارتباط الحق الفلسطيني بما سي المجتمعات أخرى يصيّب القضية الفلسطينية، وهو أسبابها في العراق عندما انحازت منظمة التحرير إلى نظام صدام حسين فخسرت القضية العراقية بعد سقوط الطاغية، وهذا هو سوء التفاهم العراقي – الفلسطيني مستمر وموّل للكثير من الممارسات.

حصل ما يُشبه ذلك أيضاً في ليبيا، على رغم أن تأثيره أقل لأسباب جغرافية أولاً، ولضعف الانغماض الفلسطيني في الصائفة الليبية ثانياً، لكن فلسطينيين كثُر من يقيمون في ليبيا ينقلون أخباراً عن عمليات ثأر تعرض لها كثيرون منهم في أعقاب سقوط النظام «المتضامن» مع القضية الفلسطينية.

كم سيبدو نقلاً لو أن الفلسطينيين تصدوا لسفن غالاوي في غزة، وكم سيستقبل السوريون ذلك بحفاوة. أن يقف مواطنون فلسطينيون على شاطئ غزة ليبلغوا ربان السفينة قرارهم التبرع بالمساعدات لسكان مدينة حمص المنكوبة، فهم بذلك سيصيّبون هدفين: الأول: رسالة تضامن مع السوريين، والثاني: القول أن قضيتنا أحق من أن تُستخدم في سحق مجتمعات أخرى.

لن يبالغ المرء في القول أن حاجة الفلسطينيين إلى رد سفن غالاوي عن شواطئ غزة تفوق حاجة السوريين إلى ذلك، إذ أن الإيمان في تلويث قضيّتهم بلغ الذروة مع أسطول التضامن الجديد هذا، وفي مواجهة حكومة إسرائيلية من نوع حكومة نتنياهو لا يمكن التساهل في حقوق الآخرين. والمسؤولية الفلسطينية هذه المرة حقيقة ولا يمكن القفز فوقها، ذاك أن المجتمعات «المستيقظة» تراقب وتدرك حجم اعتماد أنظمتها على المأساة الفلسطينية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى على الفلسطينيين أن يستعدوا وقائع الانتفاضة الأولى، تلك التي كان انغماض أنظمة الاستبداد العربية فيها منعدماً أو يكاد. ففي تلك الانتفاضة انزع الفلسطينيون اعترافاً دولياً بحقهم في أن تكون لهم دولة عاصمتها القدس، ونجحوا في إقناع العالم بأنهم الضحية. واستمر ذلك إلى أن بدأ الإقليم بالتسرب إليهم ويفكّيك وحدتهم الوطنية، فنجح الإسرائييليون في الانقضاض على إنجاز الانتفاضة.

على هذا النحو يشرع الفلسطينيون في الانخراط في حركة التغيير الجارية في محيطهم، أي عبر تخلص قضيّتهم مما علق بها خلال سنوات تضامن غالاوي ونماذجه العربية. فالأخير هو أحد الجسور التي تصل بين اضطهاد البعث السوريين وقبلهم العراقيين وبين قضية عادلة، وقد أُريد لهذا الجسر توسيع الاضطهاد.

المصدر: دار الحياة

المصادر: